



كبندول السّاعة يتذبذب الرأي، إزاء ثورة السّوريين، ضدّ نظام الأسد: هل تنتصر الثّورة؟ أم تفضي بها الظّروفُ المحيطة بها إلى الاضمحلال؟ أو الاحتواء؟

وهنا عدد من المعطيات، منها ما هو ضدّ النّظام ومنها ما هو لصالحه، ننظر فيها، ولا يعلم تطورات الأمور إلا الله.

ولعل أبرز العوامل ضد النّظام الإرادة الشّعبيّة، وهي مستمرة منذ عشرة أشهر، وتزيد توسيعاً، في مناطق كان النّظام شديد الحرّص - ولا يزال - على تحييدها، وهي دمشق، وحلب. والإرادة كذلك مستمرة، تصميماً، ولو في مواجهة القتل المنتشر بكثرة، وظروف حيائنيّة تطال العائلات، وجميع النّاس في المناطق الثّائرة، كباراً ومرضى، وأطفالاً...

هذه الإرادة الشّعبيّة التي تتغذّى بالأمل بالخلاص من عقود من الخنق والكبت والتعسّف، لا يفتُ في عضدها موافقٌ من شأنها التّوهين، وإضعاف الإرادة، وهي من الأصدقاء، ومن الأعداء، أمّا التي من الأصدقاء فتتمثل في الجهات التي تتصدّى لتمثيل الثّائرين، في المحافل الرسميّة العربيّة والدّوليّة، والمقصود الجهات المعارضة، وعلى رأسها "المجلس الوطني" و"الهيئة التنسيقية الوطنيّة" حيث يشكّو السّوريون في قلب الثّورة من انقسام المعارضة، ولو أنّه انقسام لا يصل إلى المتفق عليه، وهو إسقاط النّظام، وإقامة نظام آخر مكانه، مبنيٍ على الشّراكة، واحترام المواطنين جميعاً.

مع أنّنا لا نستطيع التّهوي من شأن هذه الخلافات؛ لأنّ مخاوف تلك الأطياف المعارضة ترتدّ إلى أسباب قوميّة، أو طائفية تعيق العمل الموحد؛ لضعف الاطمئنان إلى المصير الواضح، والرؤى المشتركة. ومن ذلك على سبيل المثال، موقف الأكراد الحذر، فقد قال عبد الحميد درويش، رئيس المجلس الوطنيّ الكرديّ وسكرتير عام الحزب الديمقراطيّ التّقديميّ الكرديّ، إنّ هناك تراجعاً في ملفّ توحيد المعارضة السّورية، وما زلنا في المرّبع الأوّل، وأضاف درويش، في تصريح خاص لـ"إيلاف" أنّه ليست هناك "أيّة خطوات إيجابيّة، وما نجده أنّ المعارضة تراجعت عن خطوة القاهرة الإيجابيّة، التي تمتّ في وقت سابق، وهو رافضون إشراك الكتلة الكرديّة في أيّ عمل مقبل". وأوضح أنّه لا يدرّي ما أسباب ذلك، ويرجّح أن تكون قوميّة أو لأسباب أخرى".

وهذه الحالة المعارضة البارية الانقسام، والتي تستبطن التّوجّس، تتدخل مع الموقف الدوليّ، والأمريكيّ بالذات الذي يصنّ ويؤكّد على أهميّة تمثيل المجلس الوطنيّ، والمعارضة لكلّ الأطياف والطوائف...

وهذا الإدراك الدولي، والأمريكي، تحديداً لوضع القوى المعارضة، بالإضافة إلى تنامي المخاوف من استيقاظ التناقضات المذهبية والطائفية، يدعو تلك الدول الفاعلة، إلى مزيد من (التروي) والانتظار؛ حتى تنضج الظروف الوطنية في سوريا. وحتى يزيد تصدع النظام، والقوى المختلفة حوله، في بلد بالغ الأهمية والحساسية، حيث بجواره العراق المتأرجح الأوضاع، وتحت إشرافه لبنان الذي ما استقر يوماً، وتحتل جولاته "إسرائيل" التي تزداد عزلة وتدبرها متطرفاً.. فالفراغ مقلق لأمريكا التي بالكاد ترتب أوراقها في المنطقة.

وثمة عامل داخلي أمريكي يعود إلى الانتخابات الأمريكية ورغبة أوباما بالاحتفاظ بـ"إنجازه" الهش في العراق. وعلى الرغم من الظروف القاهرة، التي تحيط بالثورة، داخلياً، من عدوها المتمثل في النظام وعصابته، أو تلك الخلافات غير المشجعة في تشكيلات المعارضة، في الخارج والداخل، على خلفية التدخل الأجنبي، أو بسبب المخاوف القومية، أو المذهبية والطائفية، فإن الإرادة الشعبية فاعلة، وتبدو غير مكترثة، أو متراجعة.

ومما يعمل ضد النظام، وينبني على الموقف الشعبي الموقف الدولي، ولا سيما أمريكا، وأوروبا التي اتخذت قرارها في الاستغناء عن نظام الأسد الذي قطع شعرةً معاوية مع شرائح واسعة من شعبه، وأغرق كلَّ سفنه مع تلك الدول التي لا يمكنها الاستغناء عن بلد كسورية؛ فلم يعد بإمكانها الصبر عليه طويلاً.

زُد على ذلك، وفي العامل الدولي -أيضاً- أن النظام البعثي في سوريا قد بات أكثر خطورة، وهو يخشى من الاقتراب من نهايته، وما التغيرات التي تكررت في قلب دمشق -وقد سبقتها تهديدات الأسد بزلزال في المنطقة، وأفغانستان عديدة- إلا مؤشر على ما يمكن أن يوصل هذا النظام الإقليم إليه. وهو الأمر الذي حذر منه رئيس الوزراء التركي، رجب طيب أردوغان، حين حذر من حرب طائفية ومذهبية، إذا استمر نظام الأسد.

ومما يزيد الأمر صعوبة وخطورة أن الأسد بدا في خطابه الأخير أكثر جموداً وتصميماً على البطش والتصعيد، ولم تبد منه لفتات حقيقة تبشر بالخروج من هذا النفق المظلم الذي دخله، وأدخل معه فيه بلداً كاملاً!

ونظام الأسد؛ إذ يبدو على هذا التعتن والجمود إنما يرتكن إلى مواقف دولية أخرى لا تزال تمده بمظلة دولية في مجلس الأمن؛ إذ على الرغم من الموقف الروسي الأخير الذي عرض مشروع قرار إلى مجلس الأمن، وهو ما يعني اعترافاً بتدويل الأزمة، فإن روسيا والصين، ودول أخرى لا تزال على دعمها لنظام الأسد.

أما على الصعيد الإقليمي والعربي فإن ثمة تعايلاً، أو غلبة لا تنضج بعد للجسم؛ فتركيا المناهضة للأسد والقاطعة معه تقابلها إيران المستعمرة وحلفاؤها في الدفاع عن النظام واستباقه.

وعلى مستوى الجامعة العربية فإن الغالبية المصطفة ضده لا تصل إلى الجسم، ولعلَّ أوضح دليل على ذلك أداء بعثة المراقبين وانقسامها... حتى ظنَّ أنها تتواءل مع النظام، أو تهون من جرائمه. ويبقى السؤال: إلى أين تتجه الأمور؟ أصالح النظام، أم ضده؟

إذا صح تشخيصنا للإرادة الشعبية، وأنها نهائية في رفض النظام، وترى الرجوع، أو التراجع لا يعادل الموت، بل يفوقه؛ فإن من المتوقع أن تتنامي فاعلية الموقف الدولي والإقليمية، حتى المساندة، وهي تراعي في المقام الأول مصلحتها، ربما تجد نفسها مضططرة إلى حفظ خط الرجعة، أو استبقاء ما يمكنها من المصالح مع الشعب السوري، ودول المنطقة العربية، وغالبيتها قد حسمت مواقفها ضد النظام.

والخطابي يشير بوضوح إلى توسيع المعارضة وامتدادها، على مدار الشهر المنصرمة، والانشقاق في صفوف الجيش يزيد، حتى باتت قوات الأسد (شبيحاته) لا تسيطر، ولا تتمكن من دخول بعض المناطق، على الرغم من كل القصف وال الحرب التي تشنها عليها. فمن الصعب -إن لم يكن من المستحيل- بعد الصيرورة الثورية السورية، أن تعود عقارب الساعة إلى الوراء.

